قضية التنزيه والكلام الإلهى

تمهـــيد:

تعد قضية الكلام الإلهى من أكثر قضايا العقيدة جدلاً فى تاريخنا الفكرى ، وبسببها حدثت الفتنة حول القرآن فى عصر المأمون وعرفت بمحنة خلق القرآن ، فما أبعاد هذه المحنة فكريًا ؟

يتفق المسلمون حول القرآن نصًا وروحًا ولا يشذ منهم أحد عن ذلك ، ويعتقدون أنه كلام الله المنزل على نبيه ، ﷺ ، والمتحدى به للناس عربهم وعجمهم ، ولكن بعد اختلاطهم بالملل والعقائد المختلفة بعد الفتوحات ، ظهرت مشكلة خلق القرآن قياسًا على مشكلة خلق عيسى ، عليه السلام ، فقال النصارى للمسلمين : ما دام القرآن كلام الله وهو قديم عندكم وغير مخلوق ، فلمَ تنكرون علينا مقالتنا فى عيسى ؟!

وسعى علماء المسلمين يؤكدون معنى الوحدانية ضد التعددية المسيحية وغيرها ، فالله واحد ولا إله غيره ولا يشاركه فى قدمه شئ ، وتبنى فكرة التنزيه الخليفة المأمون نفسه أملاً منه فى جمع الناس على كلمة واحدة ، وهو لا يعلم أن ذلك مستحيل وأن الاختلاف الفكرى سنة من الله فى خلقه ، ويكفى أنهم مجتمعون على الأصول ، واتسعت دائرة الفتنة ، وكثر الجدل بين المفكرين والمحدثين ، بين أهل النظر وأصحاب الرواية والأثر ، واختلطت النوايا بالقضايا ، والصادقون بمن يكذبون .

ووجدها المغرضون فرصة لإشعال الفتنة بين العلماء والعوام ، وكان لموقف الإمام أحمد دور كبير فى إزكاء روح العناد والمقاومة عند الناس ، وأخطأ المعتزلة فى تحويل الفكر إلى محنة ، والرأى إلى إلزام ، وانقلبت الموازين فى عصر المتوكل وانتقم المحدثون من أصحاب الفكر والرأى ، ودالت دولتهم ، ليأخذ تاريخ الفكر الإسلامى منحنًا جديداً ، وتندثر أفضل فترة فى تاريخ العقائد والفكر الإسلامى بانطماس أنوار العقول وسيادة الخرافات والأساطير على يد الرواة ، وتبنى الدولة لهم ، طالما أيدوها بين العوام بما يبثونه من روح التثبيط والوهن وانتهى الأمر بسقوط دولة الإسلام سياسًا وعسكريًا، لعدم وجود مقومات الدولة السياسية بين الشعب ولا مؤسسات تعرف تربيته فكريًا وسياسيًا ، وخمدت روح الثورات بعد أن خمدت روح الثوار والمفكرين الحقيقيين .

المهم تعد قضية الكلام من أكثر القضايا التى تأثر فيها المسلمون بغيرهم ، وكما أخذت هذه القضية حظها من الجدل فى اللاهوت المسيحى ، أثارت ، كما أشرنا ، جدلاً عنيفًا عند المسلمين ، فظهرت آراء حولها تتراوح بين الاعتدال والتطرف ، وإن أخذ طابعًا أخف عند المسلمين فكان فى المعانى الجزئية لا فى القضية الأساسية (١) .

اتفق أهل السنة على أن الله ، تعالي ، متكلم ، وأن كلامه قديم ليس بمخلوق ولا مجعول ولا محدث ، وهو من صفات ذاته ، كعلمه وقدرته وغيرهما من صفات الذات ، والله ، عز وجل ، متكلم فى الأزل والأبد (٢) .

ولكن المعتزلة والزيدية وغيرهم ذهبوا إلى أن كلام الله محدث مخلوق فى محل ، وبالغت الكرامية فقالت بأن الله يحدثه فى ذاته ، وترتب على كلامهم إثبات الحدث فى القديم أو حلول القديم فى المحدث وهو باطل ، يتعارض مع التوحيد (٣) .

وربما حاولت الكرامية الإفلات من هذا المأزق ففرقوا بين القول والكلام ، فقالوا بحدوث القول وقدم الكلام كصفة أزلية لله قديمة ، أما القول فله متعلقات حادثة لذلك فهو محدث ، وفى نص القرآن ما يؤيد ذلك .

المعتزلة يقولون لا يعقل تصور آمرناه فى الأزل ، وقبل أن يخلق المأمور والمنهى من خلقه ، من باب القياس فى الشاهد ، وفى القول بقدم الكلام نقض لحقيقة التوحيد ، فما جاز فى صفة الكلام جاز فى صفات الله الأخرى ، وهوما لا يقرّون بصحته (٤) .

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ (٥) ، وقال :﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (٦) ، وقال ﴿ قَالَ مُوسَى ﴾ (٧) فالأخبار السابقة دالة على حوادث حادثة فى زمن والأخبار عنها قبل حدوثها كذب على الله ، عز وجل ، هو برئ منه ، فكيف يكون الكلام قديمًا ؟ (٨)

---

(١) انظر ؛ الشهرستانى : الملل والنحل ؛ ١ / ١٠٨ وما بعدها .
(٢) الباقلانى : التمهيد ؛ ص ٢٦٨ وما بعدها .
(٣) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ؛ ص ١١٤ .
(٤) القاضى عبد الجبار : المغنى ، ٧ / ٩٣ .
(٥) سورة يوسف : آية ٥٨ .
(٦) سورة البقرة : آية ٢٥٨ .
(٧) سورة يونس : آية ٨٤ .
(٨) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٥٤ .

والخبر له متعلقان فهو يتعلق بالذات من ناحية وبالمخبر عنه من ناحية أخرى ، وهو فى حق الله مطلق إخبار لا يتعلق بالزمان ، والمتعلق بالزمان المخبر عنه ، فإن لم يقع الآن فهو إخبار عن وقوعه مستقبلاً وإذا وجد كان إخباراً عن موجود ، وإذا انقضى كان إخباراً عن ماض حدث من قبل ، فيتناول التغير المخبر لا الخبر الأزلى فى ذاته ، كان هذا هو رد أهل السنة [1] ، وتعليقى عليه أنه مجرد تصور ذهنى للأمر ، فكيف يختلف الأمر بين المخبر والمخبر به وهومتعلق بهما جميعًا ؟!.. إن مجرد إثبات الأزلية لمتعلق بالحوادث خطأ ، والمعاندة الاحتجاج له خروج عن حد المعقول صراحة ، وكان من الصواب التفريق بين كون الله متكلمًا فى الأزل والأبد ، وبين كلامه لخلقه ، ولا يستحيل عليه أن يحدث كلامًا لخلقه يأمرهم وينهاها به كما أحدثهم هم أنفسهم ، وكما أن الخلق لم يتعلقوا بأمر التكوين ، وهو أزلى ، كذلك كلامه ، تعالى ، لهم رغم أنه محدث لا يعنى حدوث خالقه .

* **صفة قديمة أزلية :**

ولعل الإصرار على أنه **صفة قديمة أزلية شكلاً وموضوعًا هو** ما أحدث هذا الشغب ، فهو حقيقى قديم أزلى ، وبه يحدث كلامًا لنا ، ولا إشكال فى المسألة من هذه الناحية .

ويبدو أن المعتزلة فى قياسهم وفهمهم للمسألة فى ظل الزمانية قد جانبوا الصواب ، فلا تلازم بين كونه ، تعالى ، متكلمًا والزمان ، فقد كان ، تعالى ، متكلمًا قبل الزمان والمكان وما زال كما كان . تقدس عن أن يحويه مكان أو يحصيه زمان .

هناك مشكلة فنية فى هذه المسألة وهى الخلاف حول المصطلح ومفهومه ، وقعت بين أهل السنة وغيرهم ، لو تحققناها تبينا أن الخلاف شكلى إلى حد بعيد ، وهو **الخلاف حول حقيقة المتكلم** . فمن هو ؟

قال أهل السنة إن حقيقة المتكلم من قام به الكلام لا من فعله .. أما المعتزلة فالمتكلم

---

(١) النسفى : التمهيد ، ص ١٧٤ .

عندهم فاعل الكلام . [1] وكلام الفريقين يمكن تجاوزه وفهمه لو قلنا أن أهل السنة قصدوا بتعريفهم الكلام النفسى ، وهو ما حاولوا به حل المشكلة . والمعتزلة قصدوا الكلام الظاهر من حركة الإنسان بالفم واللسان .

يقول الجوينى : « الكلام الحقيقى ، شاهداً ، حديث النفس ، وهو الذى تدل عليه العبارات المتواضع عليها ، وقد تدل عليه الخطوط والرموز والإشارات ، وكل ذلك أمارات على الكلام القائم بالنفس » [2] .

ويقول القشيرى : « هذا قول أهل الأصول ؛ إن الكلام هو المعنى الذى قام بالقلب ، من معنى الأمر والنهى والخبر والاستخبار » [3] .

وهكذا نجد أهل السنة ينتهون إلى القول بأن معانى القرآن قديمة ، أما ألفاظه فحادثة [4] ليحلوا مشكلة الثنائية بين القدم والحدوث ، بثنائية أخرى وهى **الكلام النفسى ، والألفاظ الحادثة .**

وافق أهل السنة المعتزلة فى أن **الألفاظ محدثة كحروف مؤلفة وأصوات متباينة مسموعة ، فهل وافقهم المعتزلة فى فكرة الكلام النفسى ؟**

عد المعتزلة هذه المقالة خروجًا عن حد المعقول !.. وحاول الإيجى (ت ٧٥٦هـ) الأشعرى التوفيق بين الاثنين، وكذلك البيضاوى (ت٦٨٥هـ) والإسناوى (ت٧٦٤هـ) فى « نهاية السول » . من بعد ، لينتهى الجميع إلى أنه لا خلاف على الحقيقة .

يقول الإيجى : « لا نزاع بين الاثنين ، فإن نفى المعتزلة الكلام النفسى القديم ، فالأشاعرة لا تنكر حدوث الألفاظ والحروف الدالة عليه ، والخلاف الحقيقى بين المعتزلة ومتأخرى الحنابلة ، الذين قالوا عبارات منكرة فى الكلام الإلهى » [5] .

لقد حرمت مثل هذه القضايا الصورية والشكلية الأمة من التفكير الجاد فى الطرح ، حول علاقة العقيدة بالسياسة والاقتصاد والإجتماع مثلاً .

---

(١) القاضى عبد الجبار : المحيط بالتكليف ؛ ص ٣٠٩ .

(٢) الجوينى : الإرشاد ؛ ص ١١١ .

(٣) القشيرى : الرسالة ؛ ١ / ٤٧ .

(٤) عبد الرحمن حاجى : الدرة الفاخرة ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الإيجى : المواقف ؛ ص ٢٩٤ .

نأتى بعد ذلك لمناقشة تعلق كلام الله بجميع مخلوقاته ، فهل له تعلق أم لا ، وما الأثر الناتج على هذه المقالة .

صرح أهل السنة بتعلق كلام الله بجميع المخلوقات خلقًا وفعلاً ، وهى مسألة ليست بالسهولة المتصورة ، ولذلك نجد الجوينى يعترف بأنها مسألة تعجز عن إدراكها العقول ، ولا يدخل فى إطارها ، ولذلك فالسند فى إثباتها هو الشرع والسماع [١] .

ومن صفات الكلام القديم أنه لا يتبدل ولا يعتريه النقصان ؛ بكونه من صفات الذات وهى أزلية ، قال القشيرى : « تقدست عن التغيير ذاته ، وتنزهت عن التبديل صفاته ، والتمام ينفى النقصان ، وكل نقصان فمن الحدث أصله ، وأنى بالنقص والقدم وصفه ؟! » [٢] .

ومن تمام المعرفة بالكلام الإلهى ، تنزيه الله عن الكلام بحرف أو صوت : « جلت ذاته عن الحدود ، وجل كلامه عن الحروف . . » [٣] .

*** أثر المشبهة فى قضية الكلام الإلهى :**

فمن قال بهذه المقالة ؟ . . أولئك هم المشبهة الحشوية فبعد أن قالوا بقدم كلام الله ، قالوا إنه بحروف وأصوات !.. وقطعوا بأن المسموع من أصوات القراء ونغماتهم عين كلام الله ، وزاد السفلة والرعاع منهم فقال بأن المسموع صوت الله ، تعالى ، جريًا على عادتهم فى التشبيه .

ثم قالوا : إذا كُتب كلام الله ، تعالى ، بجسم من الأجسام ، وانتظمت تلك الأجسام رسومًا ورقومًا ، وأسطرًا وكلامًا ، فهى بأعيانها كلام الله ، تعالى ، القديم ، وقد كان إذ ذاك جسمًا حادثًا ، ثم انقلب قديمًا وقضوا بأن المرئى من الأسطر الكلام القديم ، الذى هو حرف وصوت [٤] .

فهل كان الحشوية يركنون إلى منهج أو قواعد ثابتة يعودون إليها ويقيسون أقوالهم

---

(١) الجوينى : الإرشاد ، ص ١٣١ .
(٢) القشيرى : اللطائف ؛ ١ / ٤٩٦ .
(٣) الباقلانى : الإنصاف ؛ ص ٧٩ وما بعدها .
(٤) الجوينى : الإرشاد ؛ ١٢٥ .

عليها ؟.. لا .. فقواعد مذهبهم مبنية على جحد الضرورات ؛ فتجدهم يثبتون للكلام القديم بدايات ونهايات وسابق ومسبوق ، فالحرف الثانى من كل كلمة مسبوق بالمتقدم عليه ، وكل مسبوق مبتدأ وجوده ، وباضطرار نعلم كون المفتتح وجوده حادثًا . ولكنهم يراغمون بديهات العقول فى حكمهم ، بانقلاب الحادث قديمًا [١] .

وإذا كتب كلام الله على الورق فالحروف هى عين كلام الله ، وإذا كتب لفظ الجلالة فهو عين الله معبودهم الذى يصمد إليه !

ويتلاعبون بالدين وعقول أتباعهم ، فكلام الله قديم ، ويحل فى الوقت نفسه فى الأجسام ثم هو لا يفارق الذات ، وما أشبههم بالنصارى فى قولهم بقيام الكلمة بالمسيح وتدرعها بالناسوت ! [٢] .

*** كلام الله ليس بلغة معينة :**

إن كلام الله ليس ألفاظًا منطوقة فى أى لغة ، فلا فضل للغة على لغة ، ولا لشعب على آخر ؛ إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فكلام البارى ليس بعربى ولا سريانى ولا عبرى ، لأن هذه أوصاف اللفظ المركب من الحروف وكلامه ليس بحرف [٣] .

*** كيف ينزل على رسله :**

وبعد ، إذا كان كلام الله قديمًا وأزليًا وصفة لذاته ولا ينتقل ولا يتغير فقد بات من الضرورى على أهل السنة تقديم تفسير لكيفية نزوله على رسله ؟!

قال أهل السنة الإنزال لا يعنى حط شئ من أعلى إلى أسفل على ما يجرى للأجسام والأجرام ، أما الكلام فهو عرض لا يزول ولا ينتقل . ويأتى دور جبريل ؛ عليه السلام؛ لإدراك معنى الله وإفهام الرسول : « من غير نقل ذات الكلام » [٤] .

صرح بذلك أحد أعمدة الأشاعرة فى عصره وهو القشيرى فيقول : يجب أن يعلم أن كلام الله تعالى منزل على قلب النبى ؛ ﷺ ؛ كلام الله بواسطة الرسالة » [٥] .

---

(١) المصدر السابق ؛ ص ١٢٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) القشيرى : الفصول ؛ ص ٥٥ .
(٤) الجوينى : مصدر سابق ، ١٣٠ .
(٥) القشيرى : اللطائف ؛ ١ / ١٠٠ .

يبدو أن أهل السنة كشفوا الحديث حول صفة الكلام ، حتى صاروا فى قوس خصومهم ، زاد من صعوبة تفسيرهم لكلام الله ، قولهم بأنه ، تعالى ، أسمع كلامه خلقه ، فى ظل قولهم بأنه قديم أزلى وصفة ذات ، وما هو مفهوم من السماع ، المهم قالوا بأن الله أسمع موسى بن عمران ، عليه السلام ، كلامه ، قال ، تعالى : ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤)** ﴾ [١] **والتكليم عندهم هو المشافهة بالكلام ، فكان مكافحة بلا واسطة** ، فكيف يجوز ذلك فى صفة [٢] ! .. حقيقة كلامهم يصعب فهمه ، وهو ظاهر التناقض .

فسروا السماع بالإدراك ، فكلامه ، تعالى ، هو المعنى القائم بالنفس ، ولذلك أجازوا سماعه وخلق كلام الله إن كان ذو أصوات تدل عليه ! .. : « والذى يجب القطع به أن المسموع المدرك فى وقتنا الأصوات ؛ فإذا سمى كلام الله ، تعالى ، مسموعًا ، . فالمعنى به كونه مفهومًا معلومًا ، عن أصوات مدركة ومسموعة » [٤] .

صرح الرازى بما حيرنا وأعلن عجزه عن إقامة الأدلة العقلية على هذه المسألة ، وكان الطوسى أكثر توفيقًا حين قرر أن باب الاستدلال على مثل هذه المسألة هو السماع والتوقف . [٥]

يبدو أن الأشاعرة أرقهم ما قاله أبو الحسن الأشعرى من سماع كلام الله مشافهة [٦] ، **فاصطنعوا فكرة الكلام النفسى حلاً لذلك الإشكال ، وسماع المدرك منه ممكن عقلاً ، لأن السمع حاسة تدرك المسموع .**

نعود مرة أخرى إلى موقف أهل السنة من **قضية التنزيه فى كلام الله ، قال العوام والمشبهة كلام الله فى المصحف ، بمعنى حلوله فيه** ، وأهل السنة تقول بأن كلام الله مكتوب بالمصاحف ، وليس بمعنى اتصاله بالأجسام ولا قيامه بالأجرام [٧] .

---

(١) سورة النساء : آية ١٦٤ .
(٢) الأشعرى : الإبانة ؛ ص ٥٨ .
(٣) القشيرى : الفصول ، ص ٥٧ .
(٤) الجوينى : الإرشاد ؛ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٥) الرازى : المحصل وهامشه ، ص ١٨٦ .
(٦) الأشعرى : اللمع ، ص ٤٥ .
(٧) الباقلانى : الإنصاف ، ص ٩٣ .

وكلام الله صفة ذات قديمة لا يجوز حلولها فى المحال ، ولا تنفصل عن ذات المتكلم، قال الجبائى من المعتزلة : إن الله يحدث عند قراءة كل قارئ كلاماً لنفسه فى محل القراءة [١] .

وأهل السنة يقولون القرآن فى كل المصاحف ، ولا يزداد بزيادتها ولا ينقص بنقصانها ، والعلاف يقول : هو عرض والعرض لا يبقى!.. فهل كلام الله يفنى؟! [٢]

قراءة القراء للقرآن محدثة ، وهى كسب للعباد يؤجرون عليها إن فعلوها بشروطها، ويوزرون إن أخلوا بهذه الشروط ، والثواب والعقاب لا يتعلق إلا بما هو ممكن وكسب : « ويستحيل ارتباط التكليف والترغيب والتعنيف بصفة أزلية خارجة عن الممكنات ومن قبيل المقدورات » [٣] .

والقرآن لا يحل فى الذاكر ولا القارى بقراءته ولا يقوم به [٤] .

وبعد أرجو أن أكون قد قدمت وجهة نظر أهل السنة فى صفة الكلام بما تحمله من طابع تنزيهى خالص يتفق مع التوحيد . وسلامته من التشبيه ، وإن كان يؤخذ على متأخريهم خوضهم فى دقيق العلم وتناول ما هو غيبى وغير مطروح بشكل جدى فى العقائد وتكره تناوله الأديان بما فيه من طابع جدلى عقيم . المهم أن الخلاف بين أهل السنة كان يمكن أن يكون أكثر ثراء لو خرجوا من الدائرة الضيقة إلى الساحات الرحبة حول علاقة العقيدة بالقضايا القرآنية الساخنة المتعلقة بالإنسان والكون كعلاقة العقيدة بالمجتمع ، والسياسة والاقتصاد والإنسان والبيئة ... إلخ وإذن لتقدمنا على العالمين ولكن لله قدر فيما حدث وكان!

* * *

---

(١) الشهرستانى : نهاية الإقدام ، ص ٢٨٨ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ؛ ١ / ٥٧ .
(٣) الأشعرى : الإبانة ؛ ص ٨١ .
(٤) القشيرى : الرسالة ، ١ / ٣٤ .